٣ المرأة

obeikandl.com

obeikandl.com

المـرأة

عنـد تدبر السياسـات الخارجيـة للـدول الكبرى الممثلـة للحضـارة الغربية في عصرنـا نجد اهتماماً كبيراً مبطناً ومعلناً بموضوع تحرير المرأة، وأحياناً يسـمونه تمكين المرأة وحقوقها السياسية ومساواتها بالرجال.

قرأت كثيراً، وسألت كثيراً من المفكرين، ولم أجد جواباً شافياً للسؤال الآتي:

ما سر اهتمام الغرب بالمرأة؟

نحـن نعلـم أن الغرب منـذ حركـة الإصـلاح الدينـي البروتسـتانتي وانتصار الرأسـمالية وسيادتها يسير وفق فلسـفة نفعية، وتسيِّر سياساته الخارجية المصلحة دون أن ننكر وجود نفس أيديولوجي أحياناً، ولكن تأثيره قليل.

حتى تلك الدراسـات الاسـتشراقية الكلاسـيكية الرصينة والأكاديمية الحديثة التـي كنـا نعتقد أنها أقرب مـا تكون للحياد العلمي، ظهرت بحوث تشـير إلى أنها ما هي إلا توطئة للهيمنة والسيطرة واستغلال الآخر وإيجاد بيئة معرفية تساعد على ذلك (انظر مثلاً إلى دراسة إدوارد سعيد عن الاستشراق).

ما الذي إذاً يدفع الغرب إلى كل هذا الاهتمام بالمرأة في المجتمعات الأخرى؟

لكي لا نتهم بالقفز للنتائج سنقول: إن ظواهر هذا الاهتمام واضحة في الخطاب السـياسي الغربي وفي الإصدارات الفكرية، بـل في المؤتمرات والندوات المدعومة التي من أهمها مؤتمر القاهرة للتنمية والسكان الذي عقد عام ١٩٩٤م.

بل وصل الأمر إلى جهود مشـبوهة لسـفارات الولايـات المتحدة وقنصلياتها في الدول الإسلامية، بعضها نشر بوصفه فضائح في الصحف.

obeikandl.com

كثير من طلبة العلم والدعاة يقدمون لنا جواباً جاهزاً يستند إلى نظرية المؤامرة، ويستشـهدون بالآية الكريمـة: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أو الآية الكريمة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ ﴾.

ممـا يثير الدهشـة ما ذكـره الزوجـان «ألان»، و«باربرا بيس» في كتابهما الشـهير: «لماذا لا يسـتطيع الرجال أن ينصتوا، ولا تسـتطيع النسـاء قراءة الخرائط» وهو كتاب بيع منه عشرة ملايين نسـخة، يوضح الفوارق الأساسـية بين الرجال والنسـاء، فقد ذكرا باسـتغراب كبير الحساسـية المفرطة التي يتعامل بها المجتمع الغربي اليوم مع هذا الموضوع، الكل لا يريد أن يضبط متلبساً بالقول: إن الرجال والنساء مختلفون، فالذي يبدو أن هناك عقوبة اجتماعية وسياسية كبيرة (وإن لم تكن قانونية) على من يدعي ذلك.

يزعـم المؤلفان أن كثيراً مـن المعلومات التي حصلا عليها جاءت من تصريحات غير مسـجلة، وطلب المصرحون بها عدم ذكر أسمائهم، وبعضها جرى بحثه في غرف مظلمة، خلف أبواب مغلقة، كما ذكرا ذلك حرفـيًّا في مقدمة الكتاب.

سيظل سؤالاً مشروعاً ومفتوحاً عن الأسباب الحقيقية وراء إصرار العالم الغربي اليوم على أن الرجال والنساء متساوون، وفي ترويج القوى الغربية لهذه الثقافة وابتزاز دول العالم الضعيفة ومكافأتها على أدائها في هذا الجانب.

كتـاب الزوجـين بيـس خلاصة عظيمـة لجهود سـنوات من البحـث والتحري والتقـصي قطعـا مـن أجلـه ٤٠٠,٠٠٠ كلم وقابـلا كثيراً من خـبراء العـالم، وقدما عروضاً ومحاضرات في معظم دول العالم (من ضمنها المملكة العربية السعودية).

وقد انتهيا إلى أن العلم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجال والنساء مختلفون تماماً، فليس الذكر كالأنثى على الإطلاق.

وقبلهـا الدكتور «جون جـري» قد وصل إلى النتيجة نفسـها وعبَّر عنها بعنوان رائع: (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة).

كـما لو أن الرجال قد قدموا من كوكب المريخ والنسـاء من كوكب الزهرة، وقد استخدم هذا العنوان لكتاب أصدره باع منه ملايين النسخ.

وقد أفاض الكتابان في الفروق الجوهرية فسـيولوجيًّا وبيولوجيًّا وسـيكولوجيًّا بين الرجال والنساء، بحيث تجعل كلاًّ منهما يفكر بطريقة مختلفة تماماً، ويفسر الرسائل بطـرق مختلفـة، ويملـك مواهب مختلفـة، ويصلح لأعـمال مختلفة، تتكامـل فيما بينهما لمصلحة المجتمع، أفراداً ومؤسسات.

يثـار اليـوم كثير من القضايا عن شـهادة المرأة أو التعـدد أو الحجاب...إلخ من الأمـور التـي تخص المرأة، وتقـدم لنا الحضارة ذاتهـا التي آذتنا بهذه الأسـئلة، دلائل مذهلـة عـلى المصدر الإلهي للتشريع الإسـلامي، فقـدرات المرأة تختلـف عن قدرات الرجـل بشـكل جوهري يجعلها تصلـح لأداء مهمات معينة، وتقـل كفاءتها في مهمات أخرى، وإن قدرات الرجل تؤهله لأداء مهمات معينة وتقعد به عن أداء مهام أخرى.

وتوصل الزوجان بيس إلى أن الرجل (ذكر الجنس البشري) ينتمي إلى المجموعة المعـددة مـن النوع الحيواني، فكل خواصه الجسـدية، تدعم هـذا التوجه، وقد عبرا في النهاية عن ذلك بقولهما:

«إن هـذا هـو السـبب الـذي يجعل الرجـال الآن يكافحون لكي يبقوا غير معددين».

وكما يعلم كثير من القراء أن الزواج الإسـلامي كان عرضة لكثير من النقد على أسـاس أنه صفقـة تؤدي إلى تشـييء المرأة، كما يزعمـون. وقد انتهـى الزوجان بيس إلى أن الـزواج صفقـة تقـدم المرأة من خلالهـا الجنس؛ لتحصل على الـزواج (بمعنى

الرعايـة) وهي البنود الأصلية ذاتها في الزواج الإسـلامي تمكـين من المرأة مقابل نفقة من الرجل، ثم تأتي المودة والرحمة والرعاية بوصفها نتائج للمشاركة في الحياة.

وكما بدأنا في مقدمة هذا الموضوع عن سبب أو سر اهتمام الغرب بالمرأة لا بد أن نسأل عـن سر اهتمام مجتمعنـا المحلي بالمرأة، هـذا الاهتمام الذي جعلهـا مصدر كل الشرف ومرجعه ومحور الأخلاق.

إن مـن المثير للتأمـل أن تتركـز قضايا الـشرف في المجتمعـات الصحراوية على المرأة، وتستأثر المرأة في هذه المجتمعات (لا فرق بين أن تكون من قبائل الباكستان أو في قلـب الجزيرة العربية أو في صحـراء الأردن) بمجمل قيم الشرف، فانحسرت قيم أخرى، مثل شرف المهنة وشرف الكلمة.

هـل نسـتطيع القـول: إن المـرأة هـي الجـمال الوحيـد في الصحراء، وإن إنسـان الصحـراء عندمـا يضجـر لا يجد أمامه سـوى المرأة بوصفها مرسـى للحـب والحنان والدفء والعطاء، فلا أنهار ولا أشجار ولا ثمار، ومن ثم نشأ ينظر إلى المرأة بعين قلقة، وأنـزل بها كل ما عنده مـن قيم، قد يؤيد هذا التحليل تشـابه المجتمعات الصحراوية إلى حـد كبـير في هـذه النظرة، حتى مع اختـلاف أعراقهم وأديانهـم، وفي المقابل نجد أن المجتمعات الاسـتوائية الرغيدة أقل المجتمعات تحسسـاً في جانب المرأة، فسواء في الفلبـين أو إندونيسـيا أو تايلند أو البرازيل، ليسـت المرأة هاجسـاً على الإطلاق، ولا يقوم الدين هنا بدور كبير، فالفرق محدود بين الإندونيسي المسلم وغير المسلم.

إحدى أكبر مشكلاتنا مع المرأة في مجتمعنا المعاصر تتمثل في التشابك الذي يبدو أنـه غـير قابل للفك بين النصوص الشرعيـة حول طبيعة العلاقة بـين الرجل والمرأة، ومـا زودتنا بـه حياتنا الصحراوية والقبليـة، إن أي متأمـل لإدارة العلاقة بين الرجل والمـرأة في مجتمعنـا، وأي مطلـع على طبيعة هـذه العلاقة في المجتمـع المرجعي النبوي والراشدي، يدرك أن هناك فارقاً كبيراً بينهما.

obeikandl.com

إن مـن المناسـب أن نراجع دائـماً مجموعة النصـوص التي وصلتنا عـن المرأة في المجتمع المثال (النبوي / الراشدي)، ومثال على هذه النصوص، تذكر قول الحق تبارك وتعالى في قضية شهادة الرجل والمرأة: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ دائماً ما يستشـهد بهذه الآية على اتهام المسـلمين لعقل المرأة، ولكنهم ينسـون الوجه الآخر مـن أوجـه متعددة تحملهـا هذه الآية الكريمـة، وهو حضور المـرأة مجالس الصفقات وشـهاداتها عليهـا، ومعلـوم أن الشـهادة تتطلـب حضـوراً جسـديًّا وذهنيًّـا، فليس لغائب شهادة.

هنـاك نصوص متضافـرة ومتوافرة تصف وضعيـة للمرأة في مجتمـع النبوة وما بعـده، غـير تلك التي نحن عليها الآن، ما يعطينا دلالـة واضحة على مدى الخلط بين الديني والعرف الاجتماعي في زماننا المعاصر:

- روى مسـلم عن أم عطية ﵂ قالت: غزوت مع رسـول الله ﷺ سـبع غـزوات أخلفهـم في رحالهم، فأصنع لهـم الطعـام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى.
  - سؤال: لو أن بلداً إسلاميًّا قد وضع نظام تجنيد للمرأة، كيف ستكون ردود أفعالنا؟
- روى البخاري ومسـلم عن عائشـة ﵂ قالت: كن نسـاء من المؤمنات يشـهدن مـع رسـول الله الفجـر متلفعـات بمروطهـن، ثـم ينقلبن إلى بيوتهن، حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس.
- روى البخـاري ومسـلم عـن أنـس ﵁ قـال: رأى النبـي ﷺ النسـاء والصبيـان مقبلـين، مـن عـرس، فقـام النبـي ﷺ مُمْثـلاً، فقـال: **(اللهـم، أنتـم مـن أحـب النـاس إلي)** قالهـا ثـلاث مـرات.

obeikandl.com

- روى مسلم عن فاطمة بنت قيس ﷺ: فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي (منادي رسـول الله ﷺ) ينادي: الصلاة جامعة... وفي رواية: فنـودي في الناس أن الصلاة جامعة، فانطلقت فيمن انطلق من الناس، فكنت في الصف المقدم من النساء، وهو يلي المؤخر من الرجال.

في مجتمعنـا الآن تياران يتحالفان دون وعيهما لإلحاق أكبر أذى ممكن بالمرأة، مع ظاهر العداوة الشديدة بينهما: تيار يطلق عليه أحياناً ليبرالي أو تغريبي، سمِّه ما شئت لـه رؤية تتمثل في أن تلحـق المرأة في بلادنا بالمرأة الغربية؛ لتتحقق لها المسـاهمة في بناء المجتمع، وتستمتع بثمرات حقوقها.

التيـار الثـاني استشـكلت لديـه خلفياته المسـتمدة مـن النص الدينـي والإرث الاجتماعـي، فألبـس عـادات المجتمع وتقاليـده لبوس القداسـة الدينيـة وإلزامياتها، فأوجد رؤية لا تخرج فيها المرأة من البيت إلا للضرورة.

الغريـب في الأمـر أن كل موقف من أي من هذين النقيضين يدعم بشـكل قوي موقف الطرف الآخر.

إننـا في أمس الحاجة اليوم إلى حوار صادق مرجعيته نصوصنا الدينية والمجتمع المثال (النبوي / الراشدي)، لإدارة العلاقة الثنائية التفاعلية بين المرأة والرجل بشكل يكفل سلامة الأمة وصيانة مستقبلها.

الشيء الذي لا بد أن يدركه بعض إخواننا من حسـني النية أن أي تضييق على حركـة المـرأة لا يسـتند إلى أصل ديني قطعي الثبوت والدلالة سـيهزم، وسـيؤدي إلى مضرة أكبر، إنه أشبه بساتر رملي لوادٍ جارف كل ما يؤديه هو تجميع الماء مدة محدودة، ثم ينهار الساتر مدمراً ما خلفه.

وأخـيراً تزخـر - بفضـل الله - مجتمعاتنـا اليـوم بأفـذاذ مـن النسـاء والرجـال استطاعوا، تخليص أنفسهم من إرث العادة والرجوع إلى منبع الخير وأصل كل هداية:

obeikandl.com

كتـاب الله وسـنة نبيه ﷺ وتطبيقهـما الحي بالمجتمع المرجعـي، يكافح هؤلاء الأفذاذ أكثرية تتمتع بالقوة المادية وبالمؤثرات الإعلامية والطغيان السياسي.

تحارب الأكثرية اليوم في العالم من أجل عالم يكون فيه الرجل والمرأة متساويين[١] تمامـاً، بحيـث تذوب الفروق «الجندريـة[٢]» في الفروق البيولوجية والفسـيولوجية، وتكافـح الأقلية من أجل الدفاع عن شرع يؤكد كرامتهما واختلافهما في المسـؤوليات والواجبـات، ليـس ذلـك فحسـب، بـل يرسـم مشـهداً بديعـاً للتكامـل في الأبعـاد النفسـية والاجتماعية والوظيفية والإنتاجية، ويعـترف بإيجابيات كل طرف، ويثمرها بشكل ذكي.

تذكـروا سـؤالنا المفتـوح عن سر اهتـمام الحضـارة الغربية اليوم بالمـرأة الذي لا نستطيع أن نجزم بوجود إجابة مقنعة له؟

لـدي يقـين بـأن العالم يومـاً مـا سـيتذكر باعتـزاز أولئك الأفـذاذ الذيـن ظلوا يكافحـون من أجـل تمايز الرجال عن النسـاء؛ لحفـظ توازن الكون وضـمان ديمومة العلاقة واستمرار حياة البشر السوية.

(١) على الرغم من جهل كثير من المشاركين بالأهداف الحقيقية لهذه الحرب.

(٢) في اللغة الإنجليزية يستعملون كلمة (gender)جندر للدلالة على التمايز الاجتماعي والثقافي بين الذكر والأنثى، وكلمة جنس(sex) للدلالة على التمايز البيولوجي والفسيولوجي، ويترتب على مفهوم الجندر إشكاليات عدة، ولاقى معارضة في ثقافات كثيرة ومنها الثقافة الإسلامية، وذلك أنه يرتكز على المقوم الثقافي الاجتماعي في التمييز بين الذكر والأنثى، فالمجتمع هو الذي يجعل من الأنثى «أنثى» ومن الذكر «ذكراً»، وفي ذلك تطرف جلي للتقليل من العوامل الفسيولوجية.

obeikandi.com